حكايات من القرآن

٥

المهندس
الملك ذو القرنين

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

حِينَ استيقظَ (خالدٌ) في الصَّباحِ الباكرِ ، انْطلقَ إلى غُرْفةِ جَدِّه (الشَّيخِ حُسين).. لكنه لم يَجِدْهُ!

تساءلَ (خالدٌ): وأينَ ذَهَبَ جَدِّي منذُ الصَّباحِ؟ وهل من المَعْقُولِ أن يكونَ جدِّي قد نام خارجَ البيتِ عند أَصْدِقائه؟!

فكّر (خالدٌ) قليلاً.. واسْتَبْعَدَ الفِكْرةَ قائلاً: ولكنَّ أصدقاءَ جَدِّي يَسْكُنون في دِمَشْقَ ، ونحنُ نسكنُ الآن في اللاذقية.. إذاً: أين أنتَ يا جَدِّي..؟!

(أمُّ خالد).. كانتْ تُصلّي الفَجْر.. فسمعتْ حركاتِ البابِ يُفْتَحُ.. ثم يُغْلَقُ.. أنهتْ صلاتَها.. وخرجتْ مُسْرِعةً..

فوجدتْ ابْنَها (خالداً) يُفتِّشُ هنا وهناك.. نادَتْهُ قَائِلةً: عن أيِّ شيءٍ تُفَتِّشُ يا خالدُ ؟

أجابها: لم أَجِدْ جَدِّي في غُرْفَتِهِ.. وأنا أُريدُه لأمرٍ ضَرُوريٍّ..!!

سألَتْه والدتهُ: وما هُو الأمرُ الضَّروريُّ الذي يَسْتدعي رُؤْيته في هذا الوقتِ المُبكِّرِ؟!

وألحَّ (خالدٌ) على والدتِهِ...

فقالتْ له: لَعَلَّك تَجِدُه يَتَمشّى في حَدِيقةِ البيتِ..

انطلقَ (خالدٌ) إلى شُرْفةِ البيتِ.. فوجدَ جَدَّه جالساً على كُرْسيٍّ خَشَبيٍّ قديمٍ.. وبين يديه المُصْحفُ الشَّريفُ يقرأُ منه...

فرحَ (خالدٌ) وتقدَّم من جَدِّه.. وجلسَ إلى جِوارِه.. وحاولَ أن يَسْأَلَهُ ، لكنَّ الجَدَّ كان يُشِيرُ إليه بيدِه: أن انتظرْ قليلاً!!

انتظرَ (خالدٌ).. ثم اقتربَ من جَدِّه يريدُ أن يتحدَّث معه.. ، والجَدُّ يُشِيرُ إليه: أن اجْلِسْ

لتستمعَ إلى كلامِ الله سُبْحانه وتعالى...

وفي سِياقِ قِراءةِ الشَّيخ حُسينٍ في القُرْآنِ الكريمِ.. سَمِعَ (خالدٌ) بعضَ الأَسْماءِ والصِّفاتِ..

لكنَّه لم يَفْهَمْ ما المَقْصودُ منها...

وبعد دَقائِقَ مَعْدُودةٍ.. أَغْلقَ الجَدُّ المُصْحَفَ الشَّرِيفَ وهو يقولُ: صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ...

ثم التفتَ إلى (خالدٍ) وهو يبتسمُ ثم قالَ: والآن.. ماذا كنتَ تُرِيدُ أن تسألَ؟!

ثم أَخبِرْني: ماالذي أَيْقَظَكَ الآنَ...؟!

قال (خالدٌ): رأيتُ في الرُّؤيا أنَّنا نَجْلِسُ في الصَّباحِ الباكرِ إلى جِوارِكَ.. وأنتَ تقصُّ علينا قِصَّةَ مَلِكٍ عادلٍ...

ثمَّ عندي سؤالٌ آخرُ يا جَدِّي: لقد سَمِعْتُك تقرأُ.. ولم أفهمْ ماذا تَعْني (يأجُوج ومَأْجُوج)..

وماذا يعني (ذو القرنين)؟ أهي أَسْماء أم صِفات..؟!

أخذَ الجَدُّ حَفِيدَه بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَبَّله.. ثم قال: أنتَ تُحِبُّ القصصَ التَّاريخيَّةَ يا خالدُ؟ لعلّك تصبحُ أُستاذاً للتاريخِ عندما تكبرُ!

وأرادَ الجَدُّ أن يَشْرَحَ له معنى هذه الكَلِماتِ ، لكن (بشرى) قاطَعَتْ جَدَّها..وهي تمدّ يدها من النافذة.. وتَعْبَثُ بشَعرها .. و.. تغيِّر صَوْتَها..

وتحملُ في اليد الأُخْرى مُسَدَّساً صَغِيراً.. وتَقُولُ: ارْفَعْ يَدَيْكَ.. سَلِّمْ نَفْسَكَ..!!!

وضَحِكَ الجَمِيعُ.. بينما كان الجَدُّ يَنْهَضُ ثُمَّ يأخُذُ (بشرى) بيديه.. ويَرْفَعُها.. ويُقَبِّلها.. وهو يَقُولُ: آهٍ! مَا أَجْمَلَ الأَوْلاد.. ومَا أَحْلى حَركاتِهم وَتَصَرُّفاتِهم..!!

التفتَ الجَدُّ إلى (خالدٍ) وقال: هيَّا اذْهَبْ فنادِ (طارقاً).. فأنا أُريدُ الآن أن أَحْكِيَ لكم حِكَايةَ مَلكٍ عادلٍ عاشَ في قَدِيمِ الزَّمانِ...

واجْتَمَعَ الأَطْفَالُ حَوْلَ جَدِّهم.. بينما راحَ الجَدُّ

يَحْكي لهم الحِكايةَ.. ، لكنَّ (أمَّ خالدٍ) كانت تُنادِيهم: تعالَوْا.. هَيَّا إلى الفُطُورِ قبلَ الذَّهابِ إلى المَدْرَسةِ.. لكنَّ الأولاَدَ يُريدُونَ سَمَاعَ الحِكايةِ.. حتَّى لو كان على حِسابِ الفطورِ...!!

كانَ يا ماكانَ!!

والآنَ نَبْدأُ الحِكايةَ الجَدِيدَةِ:

كانَ يا ماكانَ.. في قَدِيمِ الزَّمانِ.. كان هُناكَ رَجُلٌ يُدْعَى (ذُو القَرْنَيْن).. ولمَّا دار الزَّمنُ دَوْرتَه ، واعْتَلَى على عَرْشِ المُلْكِ في بِلادِهِ ، سارَ بالرَّعِيَّةِ على أَحْسَنِ مايُرامُ ، فاسْتَطاعَ أن يَقْضِيَ على الجَرائمِ والفَسادِ..

وأعادَ المَظَالِمَ إلى أَهْلِها ... فعاشَ شَعْبُه عِيشةً هَنِيّةً سَعِيدةً.. وأحبَّهُ شَعْبهُ كما أحبَّ هو شَعْبَه..

وهَكَذا اتَّسعتْ مَساحةُ مَمْلَكَتِه حيثُ انْضَمَّ إليهمْ

بعضُ القبائلِ الكَبيرةِ ، وبعضُ العَشَائرِ المُجَاورةِ..

ولانتشارِ الأَمْنِ والعَدْلِ في البلادِ أَطْلَقُوا عليه لقبَ: المَلِك الصَّالح.

ولمَّا أرادَ اللهُ أن يُتمَّ نِعْمَتَه عليه.. هَدَاهُ إلى فَتْحِ البِلادِ الأُخْرى ، وذلكَ بِهَدَفِ تَحْريرِ البلادِ والعِبادِ من ظُلْمِ الطُّغاةِ والمُجْرِمينِ...

لذلكَ حَمَلَ لِواءَ التَّحْريرِ والجِهادِ ، وسار تحتَ إمْرتِه جيشٌ قَوِيٌّ...

وبالفِعْلِ لم يَسْفِكْ دَمَ أحدٍ أبداً.. فهو يَرْفَعُ لِواءَ العَدْلِ والقِسْطِ والنُّورِ لكلِّ الخَلْقِ...

وهُدِي (ذُو القَرْنَيْن) إلى فِكْرةِ العُمْرانِ والبِناء ، وإلى إقامةِ السُّدودِ على الأنهارِ...

لذلكَ ازْدَهَرتِ الزِّراعةُ.. وتَوافَرتْ أُمورُ المَعِيشةِ.. وعاشَ النَّاسُ في رَخاءٍ وازْدِهارٍ...

إضافةً إلى ذلك كُلِّه فقد شَجَّعَ قَضَايا التَّصْنِيعِ.. وأَعْطى الجَوائزَ الكَبيرةَ لكلِّ مَنْ يُحَقِّقُ إنجازاً صِناعيّاً أو تَطْويراً لأمرٍ ما.

وبالفِعْل انْطَلَقَ النَّاسُ يَعْمَلُون في كُلِّ المجالاتِ ، كُلٌّ حسبِ رَغَباته و هِواياتِه...

من المَغْرِبِ.. إلى المَشْرِقِ!!

سألَ (خالد): وماذا فَعَلَ (ذو القَرْنَيْن) في أُمُورِ الجيشِ يا جَدِّي؟

تابَعَ الشَّيخُ الجَدُّ حِكايَتَهُ الجَمِيلةَ:

نَعَم... جَمَعَ أفرادَ جيشِه ، وأَلْقَى فيهم خِطاباً رائِعاً جاءَ فيه: أَيُّها النَّاسُ ، نحنُ لم نَخْرُجْ من بِلادِنا من أَجْلِ إذلالِ الآخرين.. ولا مِنْ أجلِ احتلالِ البلادِ.. ولا مِنْ أجلِ نَهْبِ الخَيْراتِ والثَّرواتِ..

إنَّما هَدَفُنا الأوَّلُ والأخيرُ هو إحْقاقُ الحَقِّ ، ورَفْعُ

لِواءِ العَدْلِ والقِسْطِ.. والوقوفُ مع المَظْلُومينَ والمُضْطَّهدينَ... وسار الجيشُ باتِّجاهِ المغربِ.. وكُلَّما فَتَحَ بلداً من البلادِ.. كان (ذو القَرْنَيْن) يجمعُ كبارَ النَّاسِ ومُثَقَّفِيهم ، ثم يُخْبِرُهم عن دُسْتُورِه العادلِ.. وكان يُركِّزُ كثيراً على مَسْألةِ المُساواةِ بين النَّاسِ.. لأنَّ الناسَ من أَصْلٍ واحدٍ.. ولا فَضْلَ لِغَنيٍّ على فقيرٍ ، ولا لأميرٍ على عَبْدٍ.. إلا بما يُقَدِّمُه من خَيْرٍ للناسِ...

حتَّى إذا ما وَصَلَ إلى أَقْصى مكانٍ على وَجْهِ الأرضِ من جِهةِ المَغْربِ.. أراد اللهُ تعالى أن يَبْسُطَ مُلْكَهُ أكثر.. فجاءه الأمرُ الإلهيُّ أن ينطلقَ باتِّجاهِ الشَّرق أيضاً...

سأل (طارقٌ): وهل وَرَدَتْ قِصَّةُ (ذي القرنين) في القُرآنِ الكريمِ؟

أَجَلْ يا طارقُ ـ قال الجَدُّ ـ.. تعالَيْ يا بُشْرى ناوِليني المُصْحفَ الشَّريفَ...

ولمَّا فَتَحَهُ.. تلا قولَه تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾. [الكهف: ٨٣ ـ ٨٨].

سأل (خالدٌ): إلى أينَ وَصَلَ الجيشُ يا جَدِّي؟

تابَعَ الشَّيخُ حُسينٌ الحِكايةَ الجَميلةَ:

وهَكَذا يا أحبابي.. وَصَلَ الجيشُ إلى منطقةٍ صَحْراويةٍ شَاسِعةٍ.. إنَّها أَرْضٌ مَكْشُوفةٌ لا جِبالَ فيها ولا أَوديةَ ، لذلكَ فَحَرارةُ الشَّمْسِ فيها مُرْتفعةٌ جدّاً ، واسْتشارَ (ذُو القرنين) جُنودَهُ..

فكان الرأيُ الغالبُ أن يَعُودُوا إلى مَمْلَكَتِهم في اليمنِ ، وذلك بِهَدفِ الرَّاحةِ.

وفي الطَّرِيقِ إلى مَمْلَكَتِهم ، جاءه أمرُ اللهِ تعالى

أن يتوجَّه إلى بلادِ مابين السَّدَّيْنِ..

قال طارقٌ: مابين السَّدَّينِ!!.. وأينَ تلكَ البلادُ؟

يَجِيبُ الجَدُّ: لعلَّها بلادَ الصِّينِ وما حَوْلهَا يا طارقُ ، واللهُ أعلمُ...

وأَمْرُ اللهِ ـ كما تَعْلَمُونَ يا أعزَّائي ـ على الرَّأسِ والعَيْنِ..

لذلكَ انْطَلَق (ذُو القرنين) مع الجيشِ باتِّجاهِ تِلْكُم البلادِ..

ولما أَشْرَفُوا على تِلْكُم البلادِ ، أَمَر أَحَدَ جُنُودِه الأذكياءِ بالتَّسللِ ليلاً لتقصِّي الأخبارِ ومعرفةِ المَشَاكلِ عِنْدَهُم..

وانطَلَقَ الجُنْدِيُّ مُتَسلِّلاً.. وانْخَرطَ في أَحَدَ الأَسْواقِ المُزْدَحِمةِ ، واسْتَمَعَ إلى أحاديثِ الناسِ.

ولمَّا عادَ إلى الملكِ العادلِ (ذي القَرْنين) قال له:

ياسَيِّدي ، إنَّ أهلَ تلكم البلادِ يُعَانُونَ أمراً صَعْباً جِدّاً.

فقالَ الملكُ: وما هُو؟

قالَ الجُندِيُّ: هناكَ مَمَرٌّ قريبٌ من مكانِ تَواجُدِنا.. ، وبين الحينِ والحينِ ، يَهْجُمُ على بلادِهم أناسٌ كَثِيْرُونَ يُدْعَونَ شُعُوب (يأجُوج ومأجُوج).

وعندما يَدْخُلُون البلادَ ، يَعِيْثُونَ في الأرضِ الفَساد ، فَيَقْتُلُونَ الصِّغارَ والكِبارَ ، ويَغْتَصِبُونَ النِّساءَ ، ويَنْهَبُونَ الأموالَ والأرزَاقَ...

ولكثرةِ ما تكرَّر فِعْلُهم القبيحُ هذا كان الناسُ هناك ما أن يَصِلُ خَبَرُ قُدُومِهم إلى البلادِ ، حتَّى يَتْرُكُوا بِلادهُمِ ويَهْرُبوا إلى أعالي الجِبالِ!!

وتنفَّسَ الجَدُّ تَنَفُّساً عَمِيقاً ثمَّ قال: آه! كم في التَّاريخِ من ظُلْمٍ لبني الإنْسانِ!!

ثم تابَعَ حِكايَتَهُ قائلاً:

وجَمَعَ (ذو القرنين) جُنُودَهُ ، وقالَ لهم:

بإذنِ اللهِ تعالى سَنَحُلُّ لهم تلك المُشْكِلة.. ولكنْ لمَّا دَخَلَ الجيشُ بلادهم.. فَرَّ الناسُ في كُلِّ مكان ، وانْطَلَقُوا إلى أعالي الجِبالِ وهم يَحْسَبُون أنَّ جَيْشَ (ذي القرنين) هُم جَمَاعةُ (يأجُوج ومأجُوج)!!

وأرسلَ إليهم مِنْ أَجْلِ العَوْدةِ ، وأَعْطَاهُم عَهْدَ الأَمَانِ...

ولمَّا عادُوا إلى البلادِ ، واجْتَمَعُوا ، وطَرَحَ دُسْتُورَ حُكْمِه ، وما هي أَهْدَافُه من ذلك ، فَرِحُوا كثيراً...

لكنَّ واحِداً منهم قال: أيُّها الملكُ إنَّنا لن نعيشَ حياةً سَعِيدةً مُطْمئِنَّةً ما دامَ جماعةُ (يأجُوج ومأجُوج) يُهَدِّدُوننا في أيِّ لَحْظةٍ...

وخرجَ (ذو القرنين) إلى المكانِ الذي يَدْخُلُونَ منه دائِماً ، فَدَرَسَ المنطقةَ ، وسألَ واسْتشار ، ووصلَ إلى قرارٍ وجيهٍ.. جاءَ فيه:

أيُّها النَّاسُ! نحنُ لا نَبْتَغِي أَجْراً ولا مالاً.. ولا نَسْتَطِيعُ أن نَفْعلَ ذلك وَحْدَنا ، إنَّما لابُدَّ أن نَتَعاونَ جَمِيعاً على بناءِ سَدٍّ بين الجَبَلَيْنِ...

وبالفعلِ جَمَعُوا الحديدَ ، حتَّى أصبحَ بمساواةِ الجَبَلَيْنِ.. ثم أَمَر بإضرامِ نارٍ عَظِيمةٍ.. فاحْمَرَّ الحَدِيدُ وأَصْبحَ سائِلاً ، ثم صَبَّ عليه نُحاساً مُذاباً..

ولمَّا هَمَدتِ النَّارُ ، وبَرَدَ السَّدُّ ، بدا مُتَمَاسِكَ الأطرافِ وكأنَّه قِطْعةٌ واحدةٌ..

وهَكَذا ـ يا أحبابي ـ نَجَحَ (ذو القرنين) في حلِّ هذه المُشْكِلَةِ.. ودانَتْ له الأرضُ كُلُّها ، وأصبحَ مَلكَ زَمانِهِ!!

لكنَّ ذلك كلَّه لم يَجْعَلْه مَغْرُوراً.. إنَّما أَصْبَحَ أكثرَ تَواضُعاً لله سُبْحانه وتعالى..

لذلكَ كان شَاكِراً عابِداً وَرِعاً.. كُلُّ هَدَفِه في الدنيا العَمَلُ الصَّالحُ ، وتقديمُ المُساعدةِ لجميعِ خَلْقِ اللهِ..

ثُمَّ قال الجَدُّ: تَعَالَوْا لأُكْمِلَ لكُمُ الحِكايةَ من القُرآنِ، لكنْ بِشَرْطِ أن تُسْرِعُوا بَعْدَها مُباشَرةً إلى غُرْفَتِكُم، وتَسْتَعِدُّوا للانْطِلاقِ إلى المَدْرسةِ... ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾. [الكهف: ٨٩ ـ ٩٨].

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ